وشعراء عاصروهم أو تلوهم هو اتجاه تفاؤلي عمومًا، اتجاه يؤكد إيجابية التجربة الأمريكية، ويقوم بالدرجة الأولى على التغني بأرض الميعاد وإنسانها الجديد. غير أن هذا الاتجاه لم يمنع أيّا من هؤلاء الكتاب من نقد تلك التجربة بالاحتجاج على قصورها أحيانًا عن بلوغ المثل العليا التي يفترض أنها قامت عليها. وهروب كُتاب من أمثال ثورو إلى الغابات هو هروب رومانسي احتجاجي على ذلك القصور، لكن هذا الاتجاه الانتقادي للتجربة الأمريكية ليس السمة الغالبة على كتابات هؤلاء ، وإنما هو السمة الغالبة في أعمال كُتاب آخرين معاصرين لهم، ينبغي أن نُشير إليهم أيضًا، من مثل القاصين هيرمان ملفل وناثانييل هوثورن، اللذين يذكراننا بأن النموذج العبراني في الأدب الأمريكي لم يكن دائمًا نوعًا من التغني المتفائل بجماليات التجربة الأمريكية وأحلامها.

في أعمال هذين الكاتبين نجد نغمة حزن متشائمة تعود إلى جذور الثقافة الأمريكية وتجربة العالم الجديد لتعلن أن الواقع الذي سارت عليه تلك الثقافة والأطر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عبرت عن نفسها من خلالها لا تشير إلى أن أمريكا قد استطاعت أن تكون فعلاً أرض الميعاد التوراتية أو جنة الحلم الخضراء. فهوثورن يعود في روايته المشهورة *الحرف الوردي* وفي أعمال قصصية أخرى كثيرة إلى الماضي الأمريكي وبالذات إلى المتطهرين الأوائل ليتحدث عما اشتملت عليه تلك الحياة من تناقضات وخيبات ومآس محزنة. أما هيرمان ملفل فيوجه في رواية موبي *ديك* نقدًا أشد قسوة ومباشرة إلى التجربة الأمريكية من منطلق الحلم بعالم جديد تتحقق على فردوسه أحلام البشرية.

موبي ديك في هذه الرواية هو اسم حوت هائل يطارده قبطان أمريكي اسمه إيهاب (وإيهاب هو اسم أحد الملوك السيئي السمعة لبني إسرائيل ويرد ذكره في سفر الملوك في التوراة). ولايقل إيهاب هذا سوءًا عن نظيره اليهودي وإن تميزت شخصيته بأبعاد إسطورية وبطولية. فهو ذو شخصية طاغية ومهووسة يفرض بها سيطرته على مجموعة من البحارة المختلفي الأجناس. وتأتي مطاردة القبطان للحوت ومحاولته قتله انتقامًا من مواجهة سابقة لهما استطاع فيها الحوت أن يقطع إحدى ساقي القبطان. غير أنه سرعان ما يتضح أن المطاردة الجنونية هذه تحمل ضمن رموزها العديدة قصة بني